

فكرة النظم قبل عبد القاهر الجرجاني (المحاضرات: 1، 2، 3)

كانت فكرة النظم حاضرةً عند العلماء العرب قبل عبد القاهر الجرجاني، فالاهتمام بنظم الكلام قديم قدم الأبحاث اللغوية، فقد أشار الكثير منهم إلى مفهوم النظم دون أن يُسمّوا ذلك، ومنهم من صرح به. ومع أنّ فكرة النظم سبقت عند الجاحظ والخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار وغيرهم، فإنّ عبد القاهر عمّق البحث فيه وفسّره بمعاني النحو، وبين كيف يرتبط بالإعجاز، وحدّد معالمه، وصاغ بعبقريته "نظرية النظم". كلّ هذا بعد الاطلاع على المعارف السابقة وخاصة أهمّ ما كُتب في قضية الإعجاز. وهذه لمحة عامة عن فكرة النظم عند النقاد واللّغويين وعلماء الإعجاز، قبل عبد القاهر الجرجاني.

أولاً: فكرة النظم عند النقاد:

1- عبد الله بن المقفع (ت142هـ):

يقول في (الأدب الصغير والأدب الكبير): "فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمَلٌ أصيلٌ، وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواصفون المخبتون أنّ أحدهم، وإنّ أحسن وأبلغ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص؛ وجدّ ياقوتا، وزبرجدا ومرجانا، فنظّمه قلائد وسُمُوطا، وأكاليل، ووضع كلّ فصٍّ موضعه، وجمّع إلى كلّ لونٍ شبيهه، وما يزيد به ذلك حسنا، فسوّى بذلك صانعا رفيقا، وكصاغة الذهب والفضة، صنعوا منها ما يُعجب الناس من الحليّ والآنية، وكالتحلّ؛ وجدّت ثمرات أخرجها الله طيبة، وسلكت سبلا؛ جعلها الله ذللا، فصار ذلك شفاء وطعاما، وشرابا منسوبا إليها ... فمن جرى على لسانه كلامٌ يستحسنه، أو يستحسن منه، فلا يُعجبنّ إعجاب المخترع المبتدع، فإنّه إنّما اجتباها كما وصّفنا"¹.

تحدّث الأديب ابن المقفع في نصّه عن صياغة الكلام ونظّمه، حيث شبّه صاحب القول البديع بصاحب الفصوص والصائغ والتحلّ؛ الذين وجدوا مادّةً حاضرةً، فنظّموها، ووضعوا كلّ جزءٍ منها مكانه، فأصبحتْ مُستحسنة، وأعجب بها الناس. كذلك الذي يصوغ الكلام، ويُخرجه حسناً بليغاً، إنّما دورّه أنّه نظّم ورتّب كلماته، ولا مزيّة له سوى وضع الكلمات مواضعها. ولعلّ ابن المقفع هو أوّل من ذكر (النظم) صراحةً في حديثه عن صياغة الكلام.

2- العتابي (ت220هـ):

نقل أبو هلال العسكري عن العتابي قوله: "الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح؛ وإنّما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية"². فلكي يستقيم المعنى - حسب العتابي - يجب وضع الألفاظ مواضعها، وإلاّ فسدت، ويقع الخلل في نظام الكلام ونظّمه كما يقع الخلل عند تحويل رأس إلى موضع يد أو العكس، لأنّ الألفاظ بالنسبة للمعاني كالأجساد بالنسبة للأرواح.

¹ ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت، ص13، 12. (الفصوص: جمع (فص)، وهو ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة.

² السّموط: جمع (سمط)، وهو الخيط ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظما فيه. الدلّلي: جمع (ذلول)، أي السهل).

² كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ، ص 161.

2 - أبو هلال العسكري (ت395هـ):

ضمّن (كتاب الصناعتين) بابًا سمّاه (في البيان عن حُسن النّظم وجوْدة الرّصف والسّبك وخلاف ذلك). وقد وردَ فيه قوله: "وحُسن التّأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التّأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية.... وحُسن الرّصف أن تُوضَعَ الألفاظُ في مواضعها، وتُمْكّن في أماكنها، ولا يُستعملَ فيها التّقديم والتّأخير، والحذف والزيادة إلاّ حذفًا لا يُفسد الكلام، ولا يُعنى المعنى؛ وتضمّم كلّ لفظة منها إلى شكْلِها، وتُضاف إلى لُفّها. وسوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوبها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها"¹.

يتحدّث العسكري في نصّه عن حُسن التّأليف والرّصف ودوره في وضوح المعنى، وعن سوء التّأليف والرّصف ودوره في تعمية المعنى، وحُسن تأليف الكلام ورصفه عنده هو أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتضمّم إلى شبيهاها، وعكس ذلك سوء التّأليف والرّصف. وهو حديث عن نظم الكلام، استعمل فيه العسكري الألفاظ الدالّة على ذلك، ومتعلقاتها وهي: النّظم، الرّصف، السّبك، التّأليف، التّركيب، الضّم، الإضافة .

3 - ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)

تحدّث الخفاجي في كتابه (سرّ الفصاحة) عن فكرة النّظم، فبعد أن تكلم على الكلمة المفردة، عقّد فصلاً، عنوانه (الكلام في الألفاظ المؤلفة)، وأخبر أنّه سيذكر ما يحضره من القول في الكلام المؤلّف. وقبلها رأى أنّ كمال كلّ صناعة من الصناعات يكون بخمسة أشياء هي: الموضوع وهو الخشب في صناعة التّجارة والصانع وهو النّجار والصّورة وهي كالتربيع المخصوص إنّ كان المصنوع كرسيّاً، والآلة مثل المنشار والقدوم وأمثالهما، والغرض وهو أنّ يقصد على هذا المثل الجلوس فوق ما يصنعه. ولمّا كان تأليف الكلام المخصوص صناعة، وجب أن نعتبر فيها هذه الأقسام². لذلك يقول عن الصّانع: "فأمّا الصّانع المؤلّف فهو الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض كالشّاعر والكاتب وغيرهما"³. ويقول عن تأليف الألفاظ: "وتأليف الألفاظ هي صناعة هذا الصانع التي أظهرها في الموضوع"⁴.

وقد اعتبر الخفاجي أنّ الصانع مؤلّف الكلام لم يعمل الألفاظ ولم يبتكرها، إنّما نظّمها ووضعها مواضعها في الكلام، حيث يقول: "فأمّا الألفاظ فليست من عمله وإنّما له منها تأليف بعضها مع بعض"⁵. ووصل بعدها إلى أنّ الفصاحة تتمثّل في النّظم الذي عبّر عنه بحُسن التّأليف، حيث يقول: "الفصاحة عبارة عن حُسن التّأليف في الموضوع"⁶.

ثالثاً: النظم عند اللغويين:

1 - سيبويه (ت180هـ):

¹ كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ، ص 161. (لِفَقْتُ الثوب أَلْفَقَهُ وَلَفَقَ الشَّقَّتَيْنِ: وهو أن تضم شقة إلى أخرى فتخيطهما. وكتاهما لفقان ما دامتا مضمومتين. ينظر: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 330/10).

² ينظر: ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1 1402هـ-1982م، ص92، 93.

³ المرجع نفسه، ص 93.

⁴ المرجع نفسه، ص 95.

⁵ المرجع نفسه، ص 95.

⁶ المرجع نفسه، ص 95.

له باب في كتابه سمّاه (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة)، يقول فيه: "فمنه مستقيم حسنٌ، ومُحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلْتُ الجبلَ، وشربت ماء البحر ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيدا يأتيك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس¹."

يتحدّث سيبويه عن ائتلاف الكلام ونظمه ووضع الألفاظ؛ فإذا وضع المتكلم الألفاظ في غير موضعها، فسَدَ كلامه وقُبِحَ نظمه، والعكس. وهكذا فإن سيبويه قد تحدّث عن مفهوم النظم، مراعيًا فيه أحوال النَّحو، فهو يرى أن لكل استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لا بد أن ينشأ عنه تغيير المعنى، وهو لا يبعد في ذلك عن معنى النظم، إن لم يُسمَّه باسمه. ولعل ما يفيد مفهوم النظم هنا هو الاستقامة.

ووضع الألفاظ في غير مواضعها - عند سيبويه - يُفسد النظم ويُفسد المعنى. فهو يجعل مدار الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حُسن أو قبح، ووضع الألفاظ في غير موضعها دليل على قبح النظم وفساده.

2 - الجاحظ (ت255هـ):

تحدّث الجاحظ هو الآخر عن النظم، وقد أشار في مؤلفاته إلى كتاب ألفه اسمه (نظم القرآن) لكنّه لم يصل إلينا، يقول عنه: "كما عبّئ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه"². ومن أقوال الجاحظ في فكرة النظم:

• "ومن شروط البلاغة متانة العبارة التي تعني ربط ألفاظ الجملة ببعضها ربطاً مُحكماً لا هلهلة فيه ولا خلل، فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلّم بذلك أنه قد أفرغ إفرافاً وسبك سبكا واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"³.

• "وقد جعل الله قوم كلّ نبي هم المبلّغين والحجّة. ألا ترى أننا نزع من عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجّة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة"⁴.

• "وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفّى على مخارج الأشعار والأسجاع وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج"⁵.

ثالثاً: النظم عند أصحاب الإعجاز:

اتفق علماء الإعجاز على أنّ القرآن الكريم معجز، وأنّ إعجازه خارج نطاق القدرة البشرية، ومن أسباب إعجازه نظمه العجيب الذي لا يدانيه نظم، فهو يمثّل أعلى مراتب الفصاحة التي لا تدانيها فصاحة، وقد عجز عنها العرب ومن ثمّ ليس له شبيه. وهذه بعض أقوالهم:

1- وردت كلمة فكرة (النظم) في كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت276هـ)، حيث تضمّن باباً اسمه (تأويل الحروف التي ادّعى القرآن بها الاستحالة وفساد النظم)¹. كما وردت في قول الطبري

¹ سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ، 1988م، 25، 26/1.

² الحيوان، دارالكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ، 11/1.

³ الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، 18/1.

⁴ المرجع نفسه، 198/1.

⁵ المرجع نفسه، 304/1.

(ت310هـ): "وَمِنْ أَشْرَفِ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي فَضَّلَ بِهَا كِتَابُنَا سَائِرَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ: نَظْمُهُ الْعَجِيبُ، وَرَاصِفُهُ الْغَرِيبُ، وَتَأْلِيفُهُ الْبَدِيعُ، الَّذِي عَجَزَتْ عَنْ نَظْمِ مِثْلِ أَصْغَرِ سُورَةٍ مِنْهُ الْخُطْبَاءُ، وَكَلَّتْ عَنْ وَصْفِ شَكْلِ بَعْضِهِ الْبُلْغَاءُ، وَتَحَيَّرَتْ فِي تَأْلِيفِهِ الشُّعْرَاءُ"².

2 - علي بن عيسى الرّماني(ت386هـ):

اعتبر الرّماني النّظْمَ من أسباب الحُسْنِ في الكلام، وهذا الأخير أعلى مرتبة في مراتب حُسْنِ البيان في الكلام، يقول: "وحُسْنُ البيان في الكلام على مراتب: فأعلاها مرتبة ما جَمَعَ أسباب الحُسْنِ في العبارة من تعديل النّظْمِ حتى يحسن في السَّمْعِ ويسهل على اللسان وتتقبّله النَّفْسُ تقبّل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة"³.

3 - حمد بن محمد الخطابي(ت388هـ):

"وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه... واعلم أن القرآن إنّما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصحّ المعاني..."⁴.

4 - أبو بكر الباقلاني(ت403هـ):

يرى الباقلاني أنّ نظْمَ القرآن الكريم هو الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، فالقرآن الكريم بديع النّظْمِ، عجيب التّأليف، مُتَنَاهٍ في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه. وأنّ حُسْنِ النّظْمِ هذا، وبديع التّأليف والرّصف بعيدان عن التّفاوت والانحطاط عن المنزلة العليا⁵. من ثم فليس له مثال يحتذى عليه، ولا يصحّ وقوع مثله⁶.

مما سبق كلّه يتبيّن أنّ فكرة النّظْمِ الذي هو وضع الألفاظ في مواضعها، كانت حاضرة قبل الجرجاني، وشائعة عند العلماء ، وأنّ هؤلاء تحدّثوا عن النّظْمِ، لكنّه كان يفتقد إلى الفكرة الواضحة، ودون أنّ يفصّلوا فيه، أو يتحدّثوا عن مفعوله في الأداء الكلامي، إلى أنّ جاء الجرجاني فأرسم قواعدَه، وبني أسسه حتّى أصبح النّظْمُ نظرية لها صيتها الكبير.

¹ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ص 182.

² تفسير الطبري (جامع البيان) ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ، ط1، 1422 هـ - 2001 م ، 1/ 200.

³ الرماني، النكت في إعجاز القرآن ، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م، ص107.

⁴ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م، ص27.

⁵ ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، السيد أحمد صقر، دار المعارف ، مصر ، ط5 ، 1997م، ص 69 ، 70.

⁶ ينظر: المرجع نفسه ، ص 112.